اذ ليس في الحظوظ تقدير بحق ولا تمييز بمستحق وانما هي كالسحاب الذي قد يمسك
عن منابت الاشجار وينزل حيث صادف من خبيث وطيب فانه صادف
ارضا طيبة نفع وان صادف ارضا صلبة ضر وكان نعمة طامة طيبة وحكي
ان موسى بن عمران دعا على قوم بالعذاب فاوحى الله سبحانه وتعالى اليه قد ملكت
سفلتها على عليتها فقال يا رب كنت احب لهم عذابا عاجلا فاوحى الله تعالى اليه
او ليس هذا كل العذاب العاجل الاليم فاما شرف النفس اذا تجرد عن علو الهمة فان
الفضل به عاطل والقدر به خامل وهو كالقوة في الجلد الكسل والجبان الفشل
وقد قيل في منثور الحكم من دام كسله خاب امله وقال بعض الحكما نكح
العجز التواني فخرج بينهما الندامة ونكح الشؤم الكسل فخرج بينهما الحرمان

وقال بعض الشعرا

اذا انت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانا بها كانت على الناس اهونا
فنفسك اكرمها وان ضاق مسكن ... عليها لها فاطلب لنفسك مسكنا
واياك والسكنى بدار مذلة ... يعد مسيئا فيه من كان محسنا

وشرف النفس مع صغر الهمة اولى من علو الهمة مع دناءة النفس لان من علت
عليه همته مع دناءة نفسه كان متعديا الى طلب ما لا يستحقه ومتخطيا
الى التماس ما لا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما
يستحقه ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد
منهما من الذم نصيب وقد قيل لبعض الحكما ما اصعب شي على الانسان قال ان
يعرف نفسه ويكتم الاسرار فاذا اجتمع الامران واقترن بشرف النفس علو
الهمة كان الفضل بينهما ظاهرا والادب بهما وافرا ومشاق الحمد بينهما
مستسهلة وشروط المروة منهما متناهية وقد قال الحصين بن المنذر الرقاشي

ان المروة ليس يدركها امرؤ ... ورث المكارم عن اب فاضاعها
امرته النفس بالدناءة والخنا ... ونهته عن سبل العلى فاطاعها
فاذا اصاب من المكارم خلة ...

واعلم ان حقوق المروة اكثر من ان تحصى واخفى من ان تظهر لان منها

ما تقوم في الوهم حسنا ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدسا ومنها ما يظهر
ويخفى بالتغافل فلذلك اعوز استيفا شروطها الا لمن ببينة الفاضل عليها
بفطنته ويستدل العاقل عليها بفطرته وان كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا
من حقوق المروة وشروطها وانما يذكر في هذا الفصل الاشهر من قواعدها
واصولها والاظهر من شروطها وحقوقها محصورا في تقسيم جامع وهي
تنقسم قسمين احدها شروط المروة في نفسه والثاني شروطها في غيره فاما
شروطها في نفسه بعد التزام ما اوجبه الشرع من احكامه فيكون بثلاثة امور
وهي العفة والنزاهة والصيانة فاما العفة والنزاهة والصيانة فنوعان
احدهما العفة عن المحارم والثاني العفة عن المآثم فاما العفة عن المحارم
فنوعان احدهما ضبط الفرج عن المحارم والثاني كف اللسان عن الاعراض
فاما ضبط الفرج فلانه مع وعيد الشرع وزواجر العقل معرة فاضحة وهتكة
واضحة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من وقي شر ذبذبه ولقلقه
وقبقبه فقد وقي يريد بذبذبه الفرج ولقلقه اللسان وبقبقبه
البطن وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال احب العفاف الى الله
عفاف البطن والفرج وحكي ان معاوية سال عمرا عن المروة فقال
تقوى الله وصلة الرحم وسال المغيرة فقال هي العفة عما حرم الله عز وجل
والحرفة فيما احل الله عز وجل وسال يزيد فقال هي الصبر على البلوى و
الشكر على النعم والعفو عند القدرة فقال انت مني حقا وقال انوشروان
لابنه هرمز الكامل المروة من حصن دينه ووصل رحمه واكرم اخوانه
وقال بعض الحكما من احب المكارم اجتنب المحارم وقيل في عار الفضيحة
تكدر لذاتها وانشد بعض اهل الادب للحسن بن علي عليهما السلام

الموت خير من ركوب العار ... والعار خير من دخول النار

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لعلي يا علي لا تتبع النظرة
والداعي الى ذلك شيئان احدهما ارسال الطرف والثاني اتباع الشهوة وفيه